

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

ابو القاسم الشابي

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدرُ
ولا بدَّ لليل أن ينجلي
ولا بدَّ للقيد أن ينكسرُ
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة
تبخَّرَ في جوهها وانذرُ
فويل لمن لم تشقه الحيا
ة من صفة العدم المنتصرُ
كذلك قالت لي الكائناتُ
وحدثني روحها المسترُ

ودمدت الريح بين الفجاج
:وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت إلى غاية
ركبتُ المنى, ونسيتُ الحذرُ
ولم أتجنّب وعورَ الشعاب
ولا كبةً للهب المستعرُ
ومن لا يحب صعودَ الجبال
يعشَّ أبد الدهر بين الحفرُ
فجعتُ بقلبي دماءُ الشباب
.. وضجتُ بصدري رياحَ آخرُ
وأطرقتُ, أصغي لقصف الرعودِ
وعزفِ الرياحِ, ووقعِ المطرُ

:وقالت لي الأرضُ - لما سألتُ
أيا أم هل تكرهين البشرُ
أبارك في الناس أهلَ الطموح

ومن يستلذُّ ركوبَ الخطرِ
والعنُّ من لا يماشى الزمانَ
ويقنع بالعيشِ عيشَ الحجرِ
هو الكونُ حيٌّ، يجبُ الحياةُ
ويحترقُ الميتُ، مهما كبرُ
فلا الأفقُ يحضنُ ميتَ الطيورِ
ولا النحلُ بلثمَ ميتِ الزهرِ
ولولا أمومةُ قلبي الرؤومِ
لما ضمتُ الميتَ تلكَ الحفرِ
فويلُ لمن لم تشقه الحيا
ة، من لعنة العدم المنتصرِ

وفي ليلة من ليالي الخريف
مستلة بالأسى، والضجرِ
سكرتُ بها من ضياءِ النجومِ
وغنيتُ للحزنِ حتى سكرُ
، سألتُ الدجى: هل تُعيد الحياةُ
لما أذبلته، ربيعَ العمرِ
فلم تكلم شفاه الظلامِ
ولم تترنم عذارى السحرِ
وقال لي الغابُ في رقةٍ
:محببةٌ مثل خفق الوترِ
يجئُ الشتاءُ، شتاء الضبابِ
شتاء الثلوج، شتاء المطرِ
فينطفئُ السحرُ، سحر الغصونِ
وسحر الزهورِ، وسحر الثمرِ
وسحر السماء، الشجي، الوديعِ
وسحر المروجِ، الشهي، العطرِ
وتهوي الغصونِ، وأوراقها
وأزهارُ عهد حبيب نضرِ
وتلهو بها الريح في كل وادٍ

ويدفنها السيل، أنى عبر
وفنى الجمع كحلماً بديع
تألق في مهجة واندر
وتبقى البذور، التي حملت
ذخيرة عمر جميل، غبر
وذكرى فصول، ورؤيا حياة
وأشباح دنيا، تلاشت زمر
معاينة - وهي تحت الضباب
- وتحت الثلوج، وتحت المدر
لطيف الحياة الذي لا يمل
وقلب الربيع الشذي الخضِر
وحاملة بأغاني الطيور
وعطر الزهور، وطعم الثمر

ويمشي الزمان، فتنمو صروف
وتذوي صروف، وتحيا آخر
وتصبح أحلامها يقظة
موشحة بغموض السحر
تسائل: أين ضباب الصباح
وسحر المساء؟ وضوء القمر
? وأسراب ذاك الفراش الأنيق
? ونحل يغني، وغيم يمر
? وأين الأشعة والكائنات
? وأين الحياة التي أنتظر
أظمت إلى النور، فوق الفصون
أظمت إلى الظل تحت الشجر
ظمت إلى النبع، بين المروج
أبغني، ويرقص فوق الزهر
ظمت إلى نعمات الطيور
وهمس النسيم، ولحن المطر
ظمت إلى الكون! أين الوجود

وَأَنى أرى العالمَ المنتظرُ
هو الكونُ، خلف سُبُباتِ الجمودِ
وفي أفقِ اليقظاتِ الكبرِ

وما هو إلا كخفقِ الجنا
حِ حتى نما شوقُها واتصرُ
فصدعت الأرضَ من فوقها
وأبصرت الكونَ عذبَ الصورِ
وجاء الربيعُ، بأنغامه
وأحلامه، وصباه العطرُ
وقبلها قبلاً في الشفاءِ
تعيدُ الشبابَ الذي قد غيرُ
وقال لها: قد منحت الحياةَ
وخلدت في نسلِك المدخرِ
وباركك النورُ، فاستقبلي
شبابَ الحياةِ وخصبِ العمرِ
ومن تعبد النورَ أحلامه
يباركه النورُ أنى ظهرُ
إليك القضاء، إليك الضياءُ
إليك الثرى، الحالم، المزدهرُ
إليك الجمالَ الذي لا يبیدُ
إليك الوجودَ، الرحيبَ، النضرُ

فمبدي - كما شئت - فوق الحقولِ
بحلو الثمارِ وغض الزهرِ
وناجي النسيمِ، وناجي الغيومِ
وناجي النجومِ، وناجي القمرِ
وناجي الحياةَ وأشواقها
وقتنة هذا الوجودِ الأغرُ

وشفَّ الدجى عن جمال عميقِ
يشبُّ الخيالَ، ويذكي الفكرُ

ومدّ على الكون سحر غريب
يصرفه ساحر مقتدر

وضاءت شموع النجوم الوضاء
وضاع البخور، يخور الزهر

ورفرف روح، غريب الجمال
بأجنحة من ضياء القمر

ورن نشيد الحياة المقدّ

س في هيكل، حالم، قد سحر

وأعلن في الكون: أن الطموح

لهيب الحياة، وروح الظفر

إذا طمحت للحياة النفوس

فلا بد أن يستجيب القدر